قصة

مصرية

بلا أمل !

بقلم الاستاذ محمد صدقي كمبه

يا سيدي ها انا ذا الآن استطيع ان اكتب اليك، وأخيراً استطيع ان اعترف لك صراحة بقصة صباي الفاجع لا على انها مأساة انسانية يجد كثير من قرائك متعة روحية في قراءتها .. ولكن على انها قصة حياتنا انت وانا . . قصة الذكريات التي ماتت من حياتنا معاً كأيام سعيدة ، وعاشت بعد ذلك في حياتي عذابا يطاردني كما استنشقت نسمة من نسمات الحياة . .

انك لن تستطيع ان تنسى ابداً تلك الايام الجميلة التي كنت تذاكر فيها مع بنت جيرانكم اثناء استعدادك لنيل اجازة الثقافة . تلك الايام التي كنت تقضيها لاني استذكار دروسك عندي كما كنت تدعى لاسرتك . . وانما في تأدية امتع المواقف العاطفية التي كان شبابك يضفي عليها وجداناً سحريا يعبث بالشعور . .

وهل تستطيع بأية قدرة يا سيدي . . ان تنسى اسعد ايام صباك . . ؟ هل تستطيع ان تنكر انه كانت في حياتك في ايام مضت .. فتاة حيية زاهرة .. احببتها من كل قلبك .. وكتبت لها اول ما بدأت تكتب في الادب . . بضعة رسائل عاطفية .

كانت عباراتها الجياشة الرقيقة . . تسح الدماء الفوارة في شبابكما . . ؟ ؟

إنها انا بسمه . .

بسمه . . اول عذراء حفرت في حياتك خطوطاً بارزة عن المرأة ومن تكون هي بلا الغاز .. والتي كنت انت الآخر ؟ اول انسان تكشف هي سره ، كرجل فقط ، ليس إلا جسداً وبضعة رغبات .

ومع ذلك يا سيدي ؛ هذا هو انا كما احببتني ؛ وهذا هو انت ؛ كما ظللت احبك واعبدك !

انك كنت ايامها في سن الثامنة عشر وكنت انا الاخرى اصغر عنك ببضعة شهور ؛ وكان كلانا في السنة الثالثة الثانوية انني اذكر هذا جيد لأن احداث حياتي الآن تمر امام عيني الدامعة . وانا اكتب اليك هذه الرسالة كما تمر الخيالات الجانحة . امام عين الحالم المشوق . ان والدتك الحاجة نفيسة ؛ ذهبت الى بيت الله الحرام مع جدتي . التي كانت تسكن امامكم في الجناح المطل على البحر وكانت وصية جدتي الوحيدة ، ان يرعاني والدك اثناء غيابها اكراما للمرحوم والدي . الذي كان من اعز اصدقائه . وانت تساعدني انت الاخر في استذكار دروسي . بما هو معروف عنك من جد واجتهاد .

هل تذكر ذلك جيداً يا لطفي ..؟

لقد كنت ايامها جميلا رشيقاً ؛ كنت فارع القامة ، ضاحك النظرات ؛ ولم يكن شاربك هذا الجميل . قد نبت منه بعد ، الا شعرات صفراء ناعمة . . انني اتخيلك امامي الآن . . كما

وفي الحق ان اختيار الاستاذ عبد الرحمن خضر لادارة الاوقاف في هذا الوقت لنهضة اصلاحية مباركة لهذه المؤسسة العظيمة فالمسلمون يشكرون الله عليها ثم يشكرون ولاة الامر الذين اعطوا القوس باريها بتولية هذا الرجل المصلح والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؟

بغداد : الدكتور ، ت . ه

كنت ايامها بشعرك الاصفر المتموج الناعم، وعينيك الزرقاوين وحلتك الرصاصية الجديدة التي لبستها يومها لاول مرة . بل ومجلة المصور التي كانت معك . والتي استعرتها منك لاقرأها في القطار اثناء العودة .

ooo

هل تذكر يا حبيبي . . أينا هو الذي طلب من الآخر الحضور . . ؟

انه انا ؛ انا التي كان خيالك يطاردها ملحاً على صباها كلما ابصرت بك خارجا من المنزل . او عائداً من المدرسة .

انني اذكر جيدا كل ماحدث ؛ لقد اخذت انت يا لطفي في اول مرة ذاكرت فيها معك . . تطيل النظر طويلا في عيوني كانما كنت ساعتها تبحث في اعماقي عن شيء فريد تفتقده .

لكم كان منظرك ساعتها عاطفيا جميلا الى ابعد حد . . حتى انني لم افهم يومها ولا كلمة واحدة مما شرحته لي من ذلك الكتاب الذي كنا نقرأه معا ؛ وانما خرجت من عندي ، وانا اشعر شعورا غريبا ؛ لااستطيع الآن ان اصوره .

اما في اليوم الثاني ، فقد صافحتني وانا خارجة من حجرتك واحتفظت طويلا بيدي في يدك ، ورجوتني وانت تطل ايضا مبتسما في عيوني ، ان لا اتأخر غداً عن الحضور .

هل كنا نذاكر حقاً ايامها في دروس المدرسة يا لطفي . ؟ ابداً . . ابدا يا حبيبي . . لقد كنا نعبث معا بشبابنا في اقوى عاصفة من عواصف الحب العاطفي المجنون .

ألم تكن جميلا رشيقاً حلو الحديث . دافقا في احاديثك الجياشة ؟ ألم تكن كذلك حقاً . ؟

لقد عبثت اقدامك بساقي تحت المكتب في اليوم الثالث عبثا رشيقاً رفيقاً ؛ ثم احضرت لي قصة عاطفية من تأليفك ، اخذنا نقرأها معا في اليوم الرابع ، بينما كانت انفاسنا الدافئة تتواكب على صفحات الكراسه ، ورأسك مائل على رأسي في نشوة راضية ، ثم تقابلنا خارج المنزل في اليوم الخامس . . فاعترفت لي بهواك ، وسكت انا الاخرى ساعتها لحظة قصيرة ثم دفعت بين ساعديك برأسي وصدري وكل ما املك .

ooo

ترى . . أينا كان يحب الآخر ؟

انت كما كنت تفهم ؟ ام انا كما كنت اتدفق نحوك هوى وصبابة . ؟ انه انا . . انا التي كانت تحبك وتهواك يا لطفي . . وليس أدل على ذلك ياحبيبي ؛ من تاريخ اليوم السادس والسابع والثامن والتاسع .

تلك الايام الاربعة الصحوة الجميلة التي قضيناها معا في سيدي بشر ؛ حيث الصيف الماتع العربيد ؛ الذي كان يلح على اعصابنا بسعار الهوى المعتون ؛ حيث شبابي الندي الريان ، وحرمانك الثائر المجنون .

تلك الايام التي كنت تقضيها في شالية عمك ـ وكنت القاك هناك كل صباح ؛ فتلهو معك طول النهار بين الموج والشاطيء ؛ لهواً كله عبث ماجن ، ثم اضم آخر النهار شبابي بين اعطافي ثائرا مهتاجا ، لاعود به الى منزلنا اعانق احلامك العابثة في طول الليل ، حتى القاك في الصباح .

ان هذا هو تاريخ الايام التسعة السعيدة ، التي كانت وحدها هي عمر هواي العذري ؛ اما بعد هذا . . فكل ايامي في الحياة . . كانت تاريخ حب الشقاء في هواك . . بعد تلك الليلة الخالدة بقسوة ذكرياتها .

هل تستطيع ان تدعي انك تنسى هذه الليلة . ؟

انني اعرف انك لن تدعي ؛ و لن تستطيع ؛ ذلك ان لحظاتها ودقائقها وساعاتها ؛ وقفت دون سير الزمن في عمري ؛ فلم تلحق بركب الذكريات ؛ وانما راحت تجلد اعصابي وافكاري بسياط من قسوة الألم الدفين ؛ ان هذه الليلة باحداثها العاصفة تتجدد كل يوم في خيالي ؛ انني اعيش في واقعها منذ حدثت حتى هذه اللحظة هل تذكرها يا لطفي ؟ هل تذكرها جيدا؟

هل تذكر صوتك الحيي الضارع وهو يرتجف في كل كيانك هامساً في اذني وأنا بين ذراعيك؟ وعيونك الزرق اللامعه وهي تضيء في وجهك الموشى برقة الاستحياء الحبيب ـ وانت تدفن رأسك في صدري ؛ كأن رأسي كانت تجذبك نحوي فلا تملك لنفسك فكاكا من الالتصاق بي . ؟

هل تذكر بماذا كنت تهمس في اذني . ؟

يا حبيبي ؛ لقد احسست ساعتها بشيء من الرثاء لك . حينما دفنت ثورة معربدة . نحو العبث بصباي ، فمنحتني وانت تنفي

في كياني شيئاً فشيئاً قليلا من اخلاص الالم . وقليلا ايضاً من متعة اللذة ؛ ثم دفعتك الامواج الطاغية التي عربدت بصباك نحو شاطئ الليل الطويل .

ooo

أتنسى هذه الليلة ؟ الليلة العاشرة التي قضيناها في الشالية الليلة التي غلبت عاطفتي فيها عقلي ، فسلمتك في سكونها هدية الصبا لشبابي ، دون ان اقدر عاقبة هذا الاهداء ؛ الليلة التي وقفت واجماً في نهايتها للعاصفة التي جنحت بهوانا وطوحت بسفينة صباي على صخور رجولتك المبكرة ، فرحت نشوانا ساهما تلصق وجهك بزجاج النافذة التي تطل على البحر ، وانت تنظر للافق الازرق ، كأنما كنت تتسمع لهمس الصمت العجيب .

كانت السعادة ساعتها بين يديك ، وكأنك كنت تدرك قصر عمرها ، كنت تحس ساعتها بالمجهول الذي يعوي خلفها بتذير من سوء المصير .

لقد أنقت صياحها من وجومك . ورحت تجمع ملابسك واوراقك لتعود الى منزلك بعد هذا الذي حدث ، ولعلك قلت لنفسك في طوفان الفكر مبرراً ماحدث ، ان أي انسان لايقل عنك صبا في نزق شبابك ، كان لابد ايضاً ان يعبث بدنياي كما عبثت بها .

ولكن ؛ هل تعرف أي تفكير كان يعصف بي ساعتها انا الاخرى؟ لقد كنت انظر اليك طويلا . وكل انفاسي المتلاحقة المبهورة تغفر لك ذنب هواك ، ذلك انني كنت احبك حباً قوياً جارفا وكنت اعرف قبلا نتيجة هذا الحب ، كنت اعيش في اعصاره قبل ان يهب ، كل ما كان ينتابني ساعتها من شعور ، هو احساس غريب ، كنت اخاف معه ان افقدك بعد ان حدث ما حدث آه يا حبيبي

ooo

لقد كان ألمك لما حدث مضحكا في خاطري يا لطفي ؛ وانت تأسف لما عبثت به معي .. عند ملاقابلتني بعد تلك الليلة بيومين .

نعم .. لكم كان اسفك لما حدث اسفاً مضحكا جدا ، عندما لم تحاول ان تقنع بما حدث ، وانما رحت تقبلني في نشوة مجنونة . وقد اخذت تلف ذراعك حول صدري . وقد تعلقت عيونك بعيوني .

ترى اما كنت حتى ساعتها قد رويت بعد نهمك الظامىء من صباي ؟ لقد اختمرت في رأسي لحظتها فكرة الهروب من العائلة خشية الفضيحة ، وكان يتمثل لخاطري ساعتها وانت متعلق بي هكذا ، انك سوف تلحق بي ، لتروي من صباي ظمأ شبابك المتحرق ، ذلك الظمأ الذي كان يصور في عيوني جمال الدنيا في طلعتك الجميلة وانت مقبل علي ، هيمان في نظراتك لي .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؛ انني خرجت من دنيا صباي الى دنياي الاخرى ، لا املك بين يدي الا شيئين وحيدين فقط ، اعصابي ايمها في مهنة التمريض وتربية الاطفال ، وشبابي اساوم عليه كل لحظة ، ثم اخشى غضبك علي حين تلقاني وقد فرطت فيه لغيرك مهما كان الثمن .

ولكنك لم تهتم بي ؛ لم تبحث عني ، وقد مرت لحظات بي كدت فيها افرط في الهدية التي قدمتها لك حتى املأ معدتي ، ولكن خيالك كان يتمثل لي ، كنت اظنك حتما ستعود ، وكان هذا الخاطر يجدد في نفسي قوة الكفاح وطول عمر الصبر في الانتظار ، بيد انك لم تحي ؛ ومكثت انتظر ، ولكنك ايضا لم تبحث عني .

اما انا ؛ فقد فشلت في قدرتي على الثور عليك بعد ان علمت بوفاة والدك ووالدتك في حادثة منزلكم اثناء الغارة ، بعد ان رحت الهب اعصابي واقدامي في البحث عنك ثلاثة اعوام ، دون ان اسمع عنك أي حديث ؛ فلم اجد في نفسي قدرة على الاستمرار في الاحتفاظ لك بالهدية ، رغم هذه الحياة القاسية التي كنت اكابدها ، فدفعت بنفسي اتلمس النسيان والهدوء في صدور الناس وعلى موائدهم ، واستطعت بعد عامين ان اكون شيئاً ما ، شيئا ملحوظا في الوسط الفني .

ooo

ان بسمة ؛ قد تغير اسمها يا حبيبي ، لابل ياسيدي ، بعد ان قطعت صلتها بالحياة الاولى ، التي سقطت فيها ؛ انها دخلت دنيا اخرى كأي امرأة ذات فتنة وجسد ؛ لاتتميز عن غيرها من العابثات ؛ الا باسمها الذي ظهر اخيراً على الستار الفضي بحروف

من الدعاية الخلابة . والاعلانات المثيرة .

انه انا ؛ هناء ، نجم الستار الفضي لعام ١٩٣٩ م

هناء ! هل تعرف هناء ! هناء ممدوح نجمة شركة النيل السينمائية التي اوفدتك اليها مجلة الفيلم المصري لتأخذ منها حديثاً . فآنست من لقائها وداً ومحبة ؛ واخذت تقص عليها تاريخ حياتك منذ ان تركت المدرسة وانتقلت الى القاهرة لتشتغل محرراً في مجلة الفيلم بعد ان اخفيت عنها انك فشلت في الحصول على شهادة البكالوريا .. رغم مداورتها لك في الحديث .

هل تذكر هناء هذه ؟ انك لا يمكن ان تكون قد نسيتها لانها بعد ان وقعت لك باسمها على الحديث الذي اخذته منها ، ابدت لك اعجابها بقصصك ، واظهرت لك استعدادها في ان تطبع لك مجموعتك القصصية الاولى على نفقتها الخاصة ؛ تعزيزا لهذا الاعجاب .

ooo

ترى يا لطفي ، اما كان شبابي حتى ايامها ، لا يزال يحتل في خيالك مكانا صغيرا مع شيء من الذكريات ؟ أكنت قد نسيتني حقا ؟ فلم يعد شيء من صورتي او كلامي او عطفي عليك يذكرك بشيء من احداث صباك ؟ حقاً . انني لمسكينة ؛ مسكينة بهذا القلب الحي الخافق الذي يستعبد نفسي في حب الذكريات

انني لست ارجو منك يا سيدي ابداً شيئاً من الوفاء ؛ لانني اعرف تماما ؛ اننا نحن الحبات المتفانيات ؛ دورنا دائما من الحياة انما هو دور التضحية الصامتة ؛ التي يغني فيها الصمت عن الكلام ، وتعبر فيها الآهات والزفرات والدموع عن ابلغ ما يمكن ان يقال .

ولكن ماذا يمكن ان يقال في مثل حبي لك يا سيدي ؟

انه ليس الا ما كنت اهمس به كثيرا لنفسي ، كلما اطبق الليل جفونه على جسدي المضطرب الوهنان في وحدته بين اغطيه الفراش .

كانت سني اول ما احببتك ؛ تصغرك ببضعة شهور ، اما الآن ؛ فان من يراني ويراك . يظن انني اكبرك بعشرة اعوام عشرة اعوام فقط ؛ هي التي تصور الآلام التي انصهرت في نيران عذابها .

لقد كنت اشتري اول نسخة من كل كتاب تصدره ، واكتب عليها بخطي اهداءا عاطفيا منك لي ، لي انا بسمة ، العذراء التي اطلت النظر الهيمان في عيونها ذات ليلة ، تلتهم منها سعادة راضية قبل ان تأكل شهوانا من جسدها ما اكلت

كنت اكتب على كل كتاب اشتريه من كتبك اهداءا غير ذلك الاهداء الفاضل الذي كنت تسطر لي كلماته على نسخك التي تبعث بها الي ؛ على غير ما كنت اتمنى في صباي .

وماذا كانت تفعل كتبك بي ؟ هل تعرف ؟ انها كانت تسخر مني كلما سهرت الليل الطويل اقرأ فيها خلجات نفسك المضطربة وانا تائهة حيرى بين الآهة والحنين .

كانت تسخر مني ، لانك لم تكتب عني حتى ولا سطراً واحداً مما كتبته عن فتيات ونساء اخر ؛ كأنني كنت في حياتك ظلاما عاريا عن الحقيقة او خيالا تائها في ملكوت من الاوهام .

ومع ذلك يا حبيبي ، ظلت امنيتي الوحيدة في الحياة ، هي ان تكون من ابرز كتاب هذا الجيل ؛ ظلت امنيتي الوحيدة ان تصبح عبقريا خالدا ، ولو على حساب بضعة مآس مثل مأساتي التي اضطرب في احداثها حتى الآن ؛

ooo

ترى ؛ احقاً كانت في حياتك غير اخريات . . ! اخريات عذارى ونساء ؛ غدارى منحنك الهوى ؛ ونساء وهبنك الشباب . . ؟ وهل كان حظهن من هواك يا حبيبي مثل حظي . . ؟

هل كانت فيهن الشقراء الساحرة والسمراء الفاتنة ، والتي جمعت مع جمال جسدها حلاوة الروح فكان يتجدد معناها في خاطرك العاصي على الهوى كل يوم ؟

هل كانت فيهن التي كنت تراها في المساء على غير ما تراها في الصباح ، والتي تستهوي خيالك وتستعبد عصيانك بما تضفيه على حبك من دلال . ؟

ان هذا ما كنت اعلل به نفسي على سلوانك الذي جعلك ترانى وتعاشرني ؛ فلا تعرفني على انني بسمه ، العذراء التي احببتها

اول ما احببت ، ولكن على انني المرأة التي استهواها منك كبرياؤك فعبدت فيك نوعا من انواع الشقاء .

لطالما كتبت عنك لنفسي كثيرا مما كنت اتمنى ان اقول لك بل لطالما ضحكت على قلبي ، فجلست الى نفسي ، اجعلك تعترف لي بكل ماحدث ، لتعود الي ، كما كنت في شبابك .. لطفي ؛ الفتى الوديع ، الحيي الخجول ، الذي كان يرشق اصابعه في شعر رأسي ، وهويلتهفني في قبلاته المجنونة ، قائلا لي :- انني اهواك يا بسمة ، كما يهوى العليل النسيم .

ولكن ؛ ماذا كانت النتيجة من كل هذا .. ؟

كنت اذوى من الالم ، كما تنصهر الشمعة بطول الاشتعال لم أنل من هواي شيئاً ابدا ، اكثر من انني اصبحت قادرة عثلك على ان اكتب صفحات طويلة اصف فيها احاسيس نفسي الملتاعة ، وقلبي الخفوق ؛ مع فارق واحد ، هو انك تكتب من خيالك ؛ وانا اكتب من الشقاء الذي لا ينضب له معين في حشاي ، ابكي حبي لك ، ذلك الحب الخالد المقدس ، الذي يستمد قداسته وثباته ، من ايماني ، بانه سيظل دائماً جياشاً في اعماقي ولكن .. بلا امل .. والا فأين هو هذا الامل من كاتب قدير شهير مثلك ، وامرأة مبتذلة ، ليست الا نفاية من جسد نبذه عدد عديد من الرجال .. ؟

لطفي .. ألسنا جميعاً لعبة تتجدد متعتها في يد الزمن ، كلما فرت من عمرنا الايام ؛ اذن فلماذا نحزن على الماضي ؟ لماذا نبكي الحياة مادام هذا شأنها دائما ، مع غيرنا من الناس ، اننا نعيش هذه الحياة ، ونحن نعرف تماما ، انها هكذا ، دائما تفعل بغيرنا من اصحاب القلوب الكبيرة ، اولئك المساكين الذين لايملكون على افئدتهم سلطانا من الهوى ولا عصمة من خطايا الشباب ..

لطفي ، هذه حياتي كلها ، اكتب سطورها الاخيرة لك في أسوأ ساعات هذا المرض اللعين ، الذي يدق بيده القاسية على صدري الجاف المحترق ، دقاته المفزعة الاخيرة ، فوداعا يا حبيبي الخالد ، وداعا يا من احببته عمراً طويلا ؛ حبا عظيما دائما ، ولكن بلا امل . . .

مصر

محمد صدقي كسبه

من وحي بغداد

لذعات ..

بقلم

● يقول بعض الاصدقاء المرنين هل وجدت حدا للصلافة ومقياسا دقيقا لها قلت له : وجدت صورتين اعتقد ان لا ثالث لهما الاولى رجل صحفي (امي) كتبت له افتتاحية ثم سألته : هل اجهدتك هذه الافتتاحية يا استاذ ؟ واذ ذاك لم يكن ثالث معنا فقال نعم لقد سهرت في سبيل تحقيقها الى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ؛ والثاني رجل موظف في الدولة يتقدم على أبيه في المشي ويتصدر عليه في المجلس .

● ذكر لي صديق نبيه ان قرر غير مرة ابعاد دار البغاء السري والعلني من شارع الرشيد ولكن هذه القرارات لم ينفذ منها واحد الى الآن ، واذا ما سألت عن السبب ظهر ان واحدا له كل الاثر وهو متعهد الكهربا فيها .

● يشاهد السائر في شارع الرشيد ببغداد صورا يستطيع ان ينتزع منها عشرات المقالات الصارمة ، ولو لم يكن فيها إلا البغاء السيار لكفى الكاتب الاجتماعي ان يؤلف في خطره كتابا ضخما .

● من المضحكات ان تشاهد الدخيل في بلادك يشعر بانه اقوى منك اثرا واشد شكيمة ؛ واذا ما تأملت في سر ذلك وجدت نصيره من ابناء قومك الادنياء ومن الرجال الذين لا زالو يشعرون بالنقص مع تلبسهم بالالقاب الضخمة :

● نقل لي شخص امين قائلا : ان فلانا يشتمك احيانا واحيانا يفرط في الشتم ، قلت له : وهل عرفت منه السبب ؟ فقال يزعم انك اخفيت ذكر اخدانك باعمالك قلت حقا يزعم ، لما قيل: اذا انت لم تنفع فضر فانما يراد الفتى كيما يضر وينفع

● يقول بعض المتعلمين : ما هي القواعد التي توصلنا الى معرفة المعلم واطلاعه ، فقلت له : ان وجدت فيه صفة الحياء فذلك هو المعلم الممتاز .